شوقي مسلماني

رُعَاةٌ وَنَمْلٌ

رعاة ورمل (رعاة ونمل)

_ شوقي مسلماني.

\\

الجرحى

يتّكئون على جرحى.

\\

يسقي يدَه

مرّةً قمحاً ومرّةً فولاذاً.

\\

كان يُعبّر، يَعتبِر ويُدبِّر، كان يرتقي عالياً، كان مُرتقى عالٍ وكان يُحلّق عالياً، كان النسائمَ، الظلالَ، الندى، لسانَ الطيورِ المغرِّدة.. وسقسقاتِ الجداول.

وكان ينتظر سدى، يتوقّع سدى ويأمل سدى.

وكان خفيضاً في هاوية أو في لا قرار هاوية.

وخرجَ ولم يعد.

كانت نظراتٌ على ما اختبأ دون نظر، على أَبعادِ النظرِ في الدِين، على أَبعادِ النظرِ في الداني والقاصي، على التاريخِ

الذي ينزفُ دماً مِنْ جراحٍ ثخينةٍ في أنحاءِ جسمِه، على ما لا يأبه به نظرٌ، على ما لم يأبه به نظرٌ، على ألمٍ لا ينقطع وعلى ما يمكث وعلى ما يتبخّر.

يوزّعُ النظرَ في القريبِ وفي البعيد، يرى البهاءَ ويرى الهباءَ، يرى النِعَمَ والنِقَمَ، الجبالَ، الغابات، المغائر، الحقول، المدن، الذين يلتئمون والذين لا يلتئمون، الذين يرحلون، الذين يتدافعون تدافع ذوات الحوافر، الذين يقعدون قعودَ موتى، الذين يعبدون الوحوشَ والذين يتصدّون للوحوش، وليسوا قِلّة أولئك الذين يتصدّون للوحوش.

كان فاتراً، كان ناشباً وكان هامداً، كان موزوناً، عارفاً، قلِقاً، بين فكّي كمّاشةِ "بين"، في بطن "في"، ويكون رفقةً سهلةً وكلمةً مواسية.

المساحة بمقدار اتّساع الضوء.

الحركةُ الدائبةُ، الأصلحُ والأحسن.

مذهبيّات وعنصريّات، قِلّةُ عزّةِ النفس، أحقادٌ تُستثار، حكاياتٌ ليس فيها حكايات، حكايات لها ثأر، أجيال لها

وأجيال ليس لها، ساحات يستردّها البحرُ، عقولٌ جافّة وعقولٌ رِقّة.

يحوكُ حقلاً، يحوكُ منزلاً، عثراتٍ، ظلاماً، دماراً، ينطقُ، لا ينطقُ، ينصتُ، لا ينصتُ، يفرُّ زحفاً، عدواً، طيراناً، الشريعة واحدة.

مخنوقٌ، محروقٌ، مشنوقٌ، مقطَّعٌ، مفرَّمٌ، ينسى عن قِلّة فهِم أو عِلِم، سيّان، يهرب مِنَ الدبّ إلى الجبّ، ينتبه ولا ينتبه، حركةٌ دائبة، خليّةُ نحل أو نمل، ويراقب بدقّة.

نافحتُ عنكَ ونافحتَ عني، قاتلتُ عنكَ وقاتلتَ عنّي، انتشلتُكَ مِنْ غرق وانتشلتَني من غرق، تصافحنا، تخاصمنا، قلتَ إنّ الناحية هي هذه، وأنا قلتُ بل هي تلك، أردتُ الإستئثار وأنتَ لم يكن خيار أمامك سوى أن تقف وتعارضني، والتحمنا بالسلاح الأبيض، وجنَحَ ميزانُ الحقّ صوبك وجنحَ ميزانُ الحقّ صوبي بحسب مَنْ يكون المنتصِر، وتطاحنّا لأني لا أسمعك ولأنّك لا تسمعني أو لأنّي لا أراك ولا أنتَ تراني.

عواءٌ، ثغاءٌ، شهيقٌ، زفيرٌ، شهيقٌ وزفيرٌ وزفيرٌ وشهيقٌ، حمولاتٌ في كلِّ لغةٍ وخطّةٌ بالقرعة، ألوانٌ راسخةٌ، ألوانٌ نازحةٌ، أفراحُ منتصِر، أتراحُ منكسِر، أواصر مربوطة، أواصر مقطوعة، حواجز في النفوس وفي النصوص، فرادى وحوافر، فضائلُ الحبّ، عاقبةُ عملِ اللئيم، يبتنون على الرمل لا على الصخر ويرجعون إلى الوراء وفيهم غبطة تثيرُ

الذعر، غرام بالظلام، زهرات تجرؤ، تيه في تيه، لا رؤوسَ في الرؤوس، محلُّك يُسلخ منك، روائح طيّبة وروائح كريهة، قصّةٌ خاتمتُها صدى، أثرٌ وامّحاء.

ما استجدَّ، ما اختبرَ، ما لم يرأفْ به، ما سعى لأجلِه، ما لم يسع لأجله، ما فقدَه ولم يعثر عليه، ما كسَرَ الخاطر، ما غَشَّ وما أحزنَ.

مَنْ يطلب أن يرحل ومن يطلب أن يمكث، مَنْ يرى، مَنْ لا يريد أن يرى، مَنْ ينسى، من لا ينسى، مَنْ ينتبه، مَنْ لا ينتبه، من لا يريد أن ينتبه، من يكره، من يحبّ، جنونُ البقر أين يلتقي وأين يفترق مع إنفلوانزا الطيور وإنفلوانزا الخنازير؟ الهزّاتُ الأرضيّة، البراكين، الأعاصير، عبثُ النيازك، إقرارٌ بالفوضى.

في بالِ العدم

خطرتْ حياةٌ صعبة.

عند عتبةِ البيتِ عقارب، في السقفِ، تملأُ الأشجار كأنّها ثمار وطابور منها بعدَ طابور يقفز في النهر طلباً للضفّة الثانية بخوفٍ وأمل، وطابور بعدَ طابور يقفز في الهواء ويتلاشى.

يفتحُ عتمتَه

ويدخل غربتَه.

الحديث يكون على وجه التقريب خصوصاً في المسائل التي لم يُبَت بها بالبرهان، والمتعادِلان يمضيان متعاكسين وأي خلل بسبب من جهالة قياسات ستسقط.

إنحناء قديم

هو هذا العالم.

تتقيّد حين يجب أن تكون حرّاً؟ تتقيّد مِنْ تلقاء نفسك حين يجب أن تتنفّس ملء رئتيك؟ تتقيّد حين يجب أن تناضل مِنْ أجل ألاّ تكون قيود على السعادة التي تُقرَض؟.

أمم من جراد تتماوج في الماء، أمم من رماد وإلى رماد، مدن ليس فيها أبطال، مَنْ يأبهون ومن لا يأبهون، يخرج المارد مِنَ القمقم ويقول إنّه سمكة ويصيرها، إنّه شجرة ويصيرها، إنّه أناكوندا، كوالا، كنغر، كاكوبارا، كوكاتو، ما يشاء، وكلّ ما يقول ينقلب إليه، ولم يغادر شيئاً إلاّ وانقلبَ إليه.

روحُ زهرِ الليمون، اللوزِ الأخضرِ الممتلئِ، الدفلى الطيّب وله قلب مرّ، الملح الذي عمله أن يمتزج في الجميع فيمتزج الجميع فيه، الإجاص الفكِه، الخسّ الذي برجه برج الدلو، الأرض المفلوحة التي تحنّ من أجل أبنائها المتطلّعين إلى الأجملِ، الجبال الراسخة التي يصعد إليها وينحدر منها جيل بعدَ جيل، العمل الذي له رائحة صمغ المشمش، خرير النهر، مودّة

الدفءِ، الرِقّة التي إذا خُيِّرَتْ بين الإنكسار وبين الإنتصار تجرح ذاتَها وتنكسر ولا تجرح غيرَها وتنتصر.

ووثبَ اللئيمُ على الغشيم، وفي التكّةِ أضاءتِ السماءُ بالبرقِ وزمجرتْ بكلِّ طاقتِها التي تُذهِل، ذُعِرَ الغشيم، أُسقط في يدِه، طارتْ منه صخرةٌ جذورُها ثابتة في الأرض وأصابتِ اللئيمَ الذي طار عموديّاً في السماء واخترقَ الغيومَ السود حتى إذا بلغَ نقطةً لم يكن له أن يتجاوزَها، واستعجلتِ الجاذبيّةُ وردّتْه، وسقط على الأرض محدِثاً حفرةً استقرَّ فيها هامداً لولا رحمة تداركته وفتحتْ عينيه ورأى ما تمنّى لو لم تنفتحا، كان الغشيمُ عند رأسه يزفر ويشهق مصدِراً صوتاً ولا أنكر ويُلاكم الهواءَ كأنّه الأبجر حصان أبي الفوارس عنتر أو الأخرج حصان الزير سالم الذي حمّلَ القربَ ظهْرَ أسدٍ ونهرَه نحو مضارب العرب.

أيقنَ الطالبُ أنّه المطلوب، وكأنّه رفّاص مضغوط وارتفع الضغط عنه، أو كأنّه عصفور محبوس في قفص وعثرَ على منفَذ للهرب، أو كأنّه صاروخ جاهز للإنطلاق، هكذا قفزَ أو فرَّ أو طار أو انطلق.

أنا الظالم المظلوم والمظلوم الظالم، أنا القاتل المقتول والمقتول القاتل.

قامَ البحرُ وقعد، زمجر، أرغى وأزبد، لأنَّ عاصفةً هاربةً مِنْ وجه العدالةِ عبرتْ مجالَه.

زفَرَ الغشيمُ وشهقَ مرّةً بعدَ مرّة، وفرَّ الجرذُ إلى جحرِه، والنملُ إلى وكْرِه والنحلُ إلى خليّتِه والطيرُ إلى عشِّه والسبعُ إلى غابتِه، واحتشدتِ الغيومُ في السماء متّشحةً بالسواد، ونفَثَ بركانٌ هائلٌ لم يتعكّر مزاجُه منذُ قديمٍ دخاناً إنذاراً، ولمّا لا مَنْ يفهم ولا مَنْ يفهمون انفجرَ قهراً وشالقَ بالصخورِ والنيران، وغاباتٌ احترقتْ ولم تنطفئ إلاّ بعدما سكنَ تماماً وهطلَ المطرُ الغزيرُ وجرتِ السيولُ جارفةً بطريقِها إلى البحر كلَّ بيتٍ أحمق، أخرق، أصفق، لم ينهض على الصخر.

أنا المتأمِّلُ والمتألِّم، العالي والخفيض، الحاكمُ المحكومُ والمحكومُ الحاكمُ، الجاهلُ والحكيمُ، الصاعدُ والهابطُ،

الصالحُ والطالحُ، الشجاعُ والجبانُ، الحيُّ الميْتُ والميْتُ الحيُّ، كلّ شيءٍ ولا شيء.

ما يراك، ما تراه، ما لا يراك، ما لا تراه، ما يحثُّك، ما تحثُّه، ما لا يحثّك وما لا تحثّه، ما يستخفُّ وما تستخفُّ، ما لا يصدّق ولا تصدّق، ما يخذلُك، ما تخذلُه، ما يفرُّ إليك وما تفرُّ إليه، ما يفرُّ منك وما تفرُّ منه، ما يُقصِيك، ما تُقصِيه، ما يصدُّك، ما تصدُّه، ما يهجم عليك وما تهجم عليه، ما يشاء وما تشاء، ما سيشاء، ما ستشاء، ما أحزنَكما، ما أفرحكما، ما شرّدَكما، ما هداكما، الموبوءُ بصدْفةِ الأنانيّةِ، الضحيّةُ الجلاّدُ والجلاّدُ الضحيّة والمحورُ المائل.

أبناءُ الجبالِ الشامخةِ أكفُّهم حقولٌ، ظهورُهم صخورٌ واعتقادُهم العالي جذورٌ راسخة.

مَنْ يقول حجراً ومن يقول ماءً، مَنْ يقول الوراء ومَنْ يقول الأمام، من ينتبه ومن لا يريد أن ينتبه، من يسعى ومن لا يسعى، من ينسى، ومن لا يريد أن ينسى، المنخفِض والعالي، النسِر، الفهد، التمساح، العقرب، الحيّة، المسؤولُ عن عمل وكلُّ من يخرج على الدوائر.

ظهرَ واختفى في غابات لا تحدّها أبصار، ظهر واختبأَ في مغائر حيث أشعلَ النارَ وسمعتِ الكائناتُ كلمات، وتآمر مع ضعفاء للإنقضاض على ديناصورات كانت تحيا بينهم وعليهم.

خرجَ البحرُ من البحرِ لكي يعيشَ في بحرٍ آخَر.

المصابيح المنيرة حكماء مستنيرون.

كلّما ضاقتْ أمكنةٌ اتّسعتْ صحراء.

إشاراتٌ قبلَ الموجةِ التالية.

صيّادُ سمك ولا ماء، يجذبُ الخيط ولا خيط، يفكُّ السمكةَ مِنَ الصنّارةِ ولا سمكة، يضعها في السلّةِ دامعاً ولا سلّة.

أرواح محشوّةٌ صدأً، جاذبيّةٌ مثقلةٌ بالرصاص، مَنْ سرقَ وادّعى أنّه سُرِق، الذين اقتَحَموا قريةً آمنة وأضرَموا النيران في أعشاشها، الذين قتلوا كلَّ مَن حاول أن يفرّ، وقضى مَنْ لم يستطع احتراقاً أو اختناقاً، الذين لا يزالون في عتمة، لا ينهضون إلاّ إذا لهم عقرب، أمكنةٌ كلّها أمكنة ثمّ لا تقدّم مكاناً، أمكنةٌ لا مكانَ فيها، حافّةُ الأتون، أحزمةُ الفقر، حملانٌ وذئاب، أسماكٌ صغيرةٌ تتخطّفُها أسماكٌ كبيرةٌ بعنفٍ ومرح، منارةٌ مطفأةٌ وشموعُ أعياد ميلاد محطّمة.

الجماعةُ بدأتْ بتحريف أقوالِها عوض الإعلان عن هزيمتِها، الأرنبُ يُسرِعُ كأنَّه لا وقتَ لديه بعدُ، السلحفاةُ تتمهّل كأنَّ الوقتَ بعدُ كلّه لها، نسبيّةُ حكمةٍ على هيئةِ عمائر وحضارات بائدة، سِعةٌ لا يحدُّها حدٌّ أو لا يحصرُها عقل، من يصول ويجول ويذهب إلى الحدّ، من يُلقي الشِباك لصيدِ الضباب، من يرى بجرأةٍ وعاطفةٍ نبيلةٍ، من له وجه زرافة، هل لنا وجه زرافة؟ الطرقُ الضيّقة والطرقُ الفسيحة، الشموخُ بالإنسانيّة للشموخِ بالإنسانيّة، الإعتقادُ بشموخِ الإنسانيّة التي تؤدِّب مِنْ أجلِ الشموخ بالإنسانيّة، أحلامُ إنقاذِ غرقى، عملٌ وأمل، عِبرةٌ لمن يعتبر، والذي أرسلَ إنّه لم يصل.

رأيتُه جملَ محامل، رأيتُه أسدَ غضب، حصانَ عِزّةٍ، زرافةَ إلفةٍ، نيراناً منتقمةً، عاصفةً تنتّف أوراقَ الشجر، حدّاداً يعمل إزميلاً أو منجلاً أو سيفاً، نجمَ هدايةٍ، طيراً مهاجراً، مطراً شفيفاً، سهلَ قمح، مرجاً فسيحاً، جبلاً شاهقاً، أنشطَ

مِنَ النملِ والنحلِ، أكيسَ مِن الحجارةِ الكريمة، يركضُ خلفَ الخراف، يعدُّ النجومَ كالأطفال، شريفاً في الصداقةِ والخصومة، يعبر إلى داخله ويخرج راجعاً إلى داخله، يظنّ رحيقاً، يظنّ مطراً شفيفاً، يظنُّ شجرةً باسقةً، يغزلُ الصوفَ، يحوكُ الكتّانَ، ينسجُ الحرير، برشاقةِ غزال، بجرأةِ صقر، بقوّةِ فيل، بحكمةِ بومة، بشدوِ بلبل، بسخاءِ سماءٍ رحيمة، بعينيّ فلاّحٍ يرى إلى حقلِه يمحق به الجراد، بعينيّ بحّارٍ في بحرٍ هائجٍ وفي ليلِ الليل يرى وميضَ منارة، بعينيّ زاجلٍ يرى إلى حمامِه عائداً مِنْ سَفر، بعينِ زهرِ الصبّار، بعينِ عبّادِ الشمس، عيناً فيها عين فيها عين، حكيماً يزن بميزان الذهب _ الذِهابُ صناعةٌ والإيابُ رؤيا _ كائناً بلا إسمٍ بعدُ، ويمضي جماعةً، ويمضي وحيداً، ويتلاشى، وكأنْ لم يكن.

رأيتُه أبطأ مِنَ السلحفاة، أجهلَ مِنَ الرمل، حيّةً تتسلّل إلى عشٍّ في شجرة، منشاراً يعمل نشراً بغابة، علَقاً يعيش على

الدمّ.. بعتمةِ ضبع، بتكشيرةِ ذئب، بأنانيّةِ فهد، بجديّةِ وحديّةِ عقرب، بعينَي مَنْ يرى إلى عينَي مختلٍّ وبركاناً لا يحتمل بعدُ.

رأيته بعينيّ الصباحِ الرائقتين، بعينيّ الظهيرة الساكتتين، بعينيّ المساءِ الآسفتين، بعينيّ الليلِ التائهتين، بعينيّ الربيعِ الآملتين، بعينيّ الصيفِ الدافئتين، بعينيّ الخريفِ العارفتين وبعينيّ الشتاء الدامعتين.

ما تحاملَ وما نفَرَ، ما يحاولُ أن يستردَّ، ما ضاعَ، ما سيضيعُ، ما أوّلَك، ما أوّلتَه، ما حفَرَ، ما يحفرُ، ما شاءَ، ما نشأ، الصدى وصداه.

أمكنةٌ يتراكمُ الرملُ عليها، لا يرتشي فيغضبون ويقولون له: "يا ملحِد"، عبدٌ إفريقيّ يُقذَف في عرض البحرِ مِنْ سفينةِ نخاسةٍ لأنّه زائد عن العدد المحدّد لكلِّ سفينةِ نخاسة.

الإنتصارُ في روحِه هو هذه الرِقّةُ في وجهه، الإحتيال في روحه هو هذه السرعةُ في وجهه، النقمةُ في روحِه هي هذا الوجومُ في وجهه، العطاءُ في روحِه هو هذا الرضى في وجهه، اللياقة في روحه هي هذا المرح في وجهه، والرحمة في روحه هي هذا الإنكسار والإنتصار معاً في وجهه.

الشمسُ في الأعالي وعلى الأرض الألوان.

كلّما حلّقَ النورسُ أعلى كلّما اتّسعَ البحرُ الأزرق أكثر.

استردَّ، تقدّمَ، تأخّرَ، أوقدَ، أطفأَ، وهَبَ، نهبَ، التأمَ، استقامَ، استولدَ، قلّدَ، استوثقَ، رفعَ، وضعَ، أبدعَ، اتّبعَ، ارتفعَ، وقعَ، أمِلَ، استغفلَ، عمّرَ، دمّرَ، تعاقبَ، قعد، قامَ، زرعَ وحصَد.

مكافح، متبلِّد، مشتعل، مكسِّر، مُكسَّر، مُيئِّس، منتكِس، منقطِع، مضيّع، مُضيَّع، متردّد، منتقِم، مُضيّق، مُعِزّ، مُؤيِّد، مُنَدِّد، مُذِلّ، مؤمِّل، مُيئِّس، مُنبِّه، مُخدِّر، مُخدَّر، مُوَسِّع، مُدبِّر، مُسيِّب، مُسيَّب، مُضلِّل، مُشرِّد، مُحيِّر، مُخيِّر، مُغيِّر، مُثبِّت، مُثبَّت، مُفرِّط، موفِّق، موفَّق، مُعتقِل، مُعتَقَل،

مُحرِّر، مُقِرٌّ، مُسعِف، مُقبِل، مُدبِر، مُحِبّ، كارِه، مُستأمِن، مُحارِب، مُحارَب، مُفسِح، مُرشِد، مُحبِط، مُحبَط، مُمسِك، مُمسَك، مُهلِك، مُسعِد، محزِن، مُصلِح، مُفسِد، مُفسَد، مُفقِر، مُخصِب، مُمحِل، مؤنِس، موحِش، مُكرِم، مُسقِم، مُبرئ، مُحوِج، مُلئِم، مُنقِض، مُنقَض، مُكرِه، مُقفِر، مُشعِل، مُطفِئ، مُوهِم، مُوهَم، مُعاكِس، مُعاكَس، مُنكِر ومؤسِف.

يأتي ويرحل،

مسافات آهلة بالرمل،

رعاة ونمل.

***

Shawkimoselmani1957@gmail.com

2012